الباب الأول

فى

علم الشريعة والحقيقة

obeikandl.com

اعلم هداك الله تعالى أنى وضعت فى هذا البـاب مـن أصـول الديـن مـا يترقى به السائل إلى مالا نهاية له من حقائق علم الشريعة .

والأصل فى ذلـك : أن أصـل العلـم ومقصـوده والمـراد منـه ؛ هـو علـم التوحيد الخاص[١٢] ؛ وهو معرفة الله عز وجل وتمييز الخالق من المخلوق ، وتنزيه الله عما سواه ، فذاك هـو الديـن القيـم والصـراط المسـتقيم ، قـال اللـه تعالى ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْس إِلاَّ لِيَعْبُدون**﴾ [الذاريات : ٥٦] . قال بعـض المفسرين[١٣] : أى ليعرفونى فيوحدونى . ولذلك بداية ونهاية .

أما البداية : فهى العلم المشروع بالظاهر ، وهو علم الشريعة .

وأمـا النهايـة : فهـو العلـم المشـروع بالبـاطن ، وهـو علـم الحقيقـة[١٤]

---

(١٢) سُئل الجنيد –رحمه الله تعالى– عن توحيد الخـاص ؛ فقـال : إن يكـون العبـد شـبحاً بين يدى الله سبحانه ، تجرى عليه تصاريف تدبيره فـى مجـارى أحكـام قدرتـه ، فـى لجـج بحـار توحيـده بالفنـاء عـن نفسـه وعـن دعـوة الخلـق لـه وعـن اسـتجابته بحقـائق وجوده، ووحدانيته فى حقيقة قربه ، بذهاب حسه وحركته لقيام الحق سبحانه فيما أراد منه وهو أن يرجـع آخـر العبـد إلـى أولـه فيكـون كمـا كـان قبـل أن يكـون . [الرسـالة القشيرية ص٣٠٠] والمراد : أن يكون العبد راضيا بما يجريه الله تعالى عليـه ، ممـا يرضاه له فرح النفس ، حسن الظن بربه ، أى أن يكون بسره ووجده وقلبه كأنـه قـائم بين يدى الله تعالى تجرى عليه تصاريف تدبيره وأحكام قدرته .

(١٣) انظر : تفسير الفخر الرازى [٢٣٤/٢٨] . قال الطبرى فى تفسيره : وأولى الأقـوال فى ذلك على ما ذكر ابن عباس ؛ وهو : ما خلقت الجـن والإنـس إلا لعبادتنـا والتذلـل لأمرنا . [١٢/٢٧] .

(١٤) علم الحقيقة : مشاهدة الربوبية ، أى رؤيتهما بالقلب وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبـول ، وكـل حقيقـة غير مؤيـدة بالشـريعة ، فأمرهـا غـير محصـول . والشريعة حقيقة من حيث إنهـا وجبـت بـأمره ، والحقيقـة أيضـا شـريعة مـن حيـث إن المعـارف بـه سـبحانه أيضـاً وجبـت بـأمره .[الرسـالة القشـيرية ص٣٨، كشـاف إصطلاحات الفنون ٨٦/٢] .

وهما. متلازمان متفقان على الشريعة ظاهراً وباطناً ؛ لأنه لابدَّ لكل بداية من نهاية ولكل ظاهر من باطن ، كما لابد لكل حق من حقيقة ، ولهما ماهية وكيفية وكمية .

أما الماهية[١٥] : فاعلم أن العلم يترقى فى ثلاث درجات[١٦] ، ماهيات للعلم ، وهى : العلم ثم المعرفة ثم المشاهدة .

أما العلم[١٧] : فهو علم الشريعة .

---

(١٥) ماهية الشىء : مابه الشىء هو هو ، وهى من حيث هى هى لا موجودة ولا معدومة ، ولا كلى ، ولا جزئى ، ولا خاص ، ولا عام ، والماهية تطلق غالباً على الأمر المتعقَّل مثل المتعقَّل من الإنسان ، وهو الحيوان الناطق مع قطع النظر عن الوجود الخارجى .[التعريفات للجرجانى ص٢٥١] .

(١٦) يشير الأستاذ الدكتور : على جمعة فى كتابه (علم أصول الفقه وعلاقته بالفلسفة الإسلامية ص٢٥) إلى الفرق بين الواقع ، ونفس الأمر –الذى أشار إليه المصنف ؛ صاحب الكنز، بعلم الشريعة أو الدرجة الأولى من الماهية ، وهى العلم– أمّا نفس الأمر المتعلق بحقائق الأشياء –وهى الدرجة الثانية والثالثة من الماهية أى ؛ بالمعرفة، والمشاهدة ، كما أشار ابن تومرت –فيقول الدكتور على جمعة : يختلف إدراك الإنسان له عبر الزمان وحسب كمّ المعلومات التى لديه وطريقة وصول المعلومات ، فعليه يختلف إدراك الناس وتتفاوت بحسب مكان كل منهم ، وهو يظهر جليا فى الفرق بين إدراك أبو بكر الصديق وبين إدراك أحد من عامة المسلمين . وذلك ما رسمه المصنف بالحقيقة والمشاهدة . ويقول الشيخ على جمعة فى كتابه السابق الذكر: فإن النصوص الشرعية ينبغى أن تتعلق فى خطابها العام للكافة بالواقع بصورة أصلية، ولا تتعلق بنفس الأمر إلا بصورة ثانوية وأظن أن هذا الفهم يحل مشكلة العلم والدين التى نشأت من صدام النصوص المحرفة للوحى فى الغرب مع الحقائق المتتالية المدركة بالتجربة والحس أى مشكلة العلم والدّين .

(١٧) العلم : هو إدراك الشىء على ما هو عليه . والمراد : الدرجة الأولى من مقصود الحكمة ، وهى إدراك الشريعة الظاهرة التى جاء بها النبى ﷺ ، والتى نجد المؤلف يعادل هذه الدرجة من الماهية بظاهر الإسلام . [التعريفات للجرجانى ص١٩٩] .

وأما المعرفة[١٨] : فهى علم الحقيقة .

وأما المشاهدة[١٩] : فهى حقيقة الحقيقة وطريق العبد السالك أن يطابق العلم بالعمل عقيدة بالجَنَان وعملاً بالأركان[٢٠] فى ثلاث درجات أيضا وهى : الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان .

أما الإسلام : فهو ما اعتقده الظاهر بعلم اليقين من علم الشريعة عند بداية العلم .

وأما الإيمان : فهو ما اعتقده الباطن بعلم اليقين من علم الحقيقة عند المعرفة.

وأما الإحسان : فهو مطابقة العلم بالعمل من حقيقة الحقيقة عند المشاهدة. وذلك هو حق اليقين[٢١] والدين القيم الخالص والاستقامة مع الله عز وجل .

---

(١٨) المعرفة : هى إدراك الشىء على ماهو عليه ، فهى ترادف العلم ، وإن تعدت إلى مفعول واحد والعلم إلى اثنين . وقيل هى مسبوقة بجهل ، بخلاف العلم ولذلك يسمى الحق تعالى : بالعالم دون العارف وهى الدرجة الثانية من الماهية من مقصود الحكمة كما أشار المؤلف . [التعريفات للجرجانى ص٢٨٣] .

(١٩) المشاهدة : تطلق على رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، وتطلق بإذائه على رؤية الحق فى الأشياء وذلك هو الوجه الذى له تعالى بحسب ظاهريته فى كل شىء . [التعريفات للجرجانى ص٢٧٤] .

(٢٠) وفى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ((الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان)) . أخرجه ابن ماجة ، المقدمة ، باب فى الإيمان(٦٥) .

(٢١) اليقين : هو العلم الّذى لا يداخل صاحبه ريب على مطلق العرف ، ولا يُطلق فى وصف الحق سبحانه لعدم التوفيق : وعلم اليقين ما كان بحكم البيان ، وحق اليقين ما كان بنعت العيان ، والثلاث أوصاف جاءت فى القرآن الكريم قال تعالى ﴿**لو تعلمون علم اليقين**﴾ [التكاثر:٥] . وقال تعالى ﴿**لترونها عين اليقين**﴾ [الواقعة :٩٥] . [الرسالة القسيرية ص٨٥] .

وقد ندب الله عز وجل إلى جميع ذلك ونبه عليه بمحكم كتابه العزيز .

فقال الله تعالى فى الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾[آل عمران:١٩]. وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران :٨٥] .

وقال تعالى فى الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ باللهِ ورَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ [النساء :١٣٦].

وقال تعالى فى الإحسان[٢٢] ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١] . وقال تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[هود :١١٢] . قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الأحقاف :١٣] وقال تعالى﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾ [البينة :٥] . أى طريق المستقيمة .

فهذه ثلاث درجات ، كما ذكرنا على منهج الكتاب العزيز وتؤيده السنة بقول النبى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم حين أتاه جبريل عليه السلام فى صورة أعرابى يسأله عن الدين ، فقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ، فقال: ((نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت الحرام)) . قال : صدقت يا محمد ، فأخبرنى عن الإيمان ، قال : ((تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر خيره وشره)) . قال : صدقت يا محمد ، فأخبرنى عن الإحسان ، قال : ((تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) . قال : صدقت يا محمد، فأخبرنى عن الساعة ، قال:

---

(٢٢) راجع تفسير الطبرى [٢٦٩/٧] ، تفسير الفخر الرازى [٨٣/٧] .

((ليس المسئول عنها بأعلم من السائل)) . قال: صدقت يا محمد ثم خرج . فقال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أتدرون من السائل؟)) قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : ((هو أخوكم جبريل أتاكم ، ليعلمكم دينكم))[٢٣] .

فحقيقة الإسلام[٢٤] : قيام البدن بوظائف الأحكام الدينية .

وحقيقة الإيمان[٢٥] : قيام القلب بوظائف الاستسلام .

وحقيقة الإحسان[٢٦] : قيام الروح بمشاهدة الملك العلام .

---

(٢٣) أخرجه البخارى ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبى ﷺ [٥٠] وفى كتاب التفسير ، باب إن الله عنده علم الساعة (٤٧٧٧) عن أبى هريرة رضي الله عنه وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان [١/٨] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢٤) الإسلام : الخضوع والانقياد ، والاستسلام لله عز وجل باتباع ما جاء به الرسول ﷺ؛ من الشهادة باللسان والتصديق بالقلب والعمل بالجوارح . [الموسوعة الفقهية ٢٥٩/٤] .

(٢٥) الإيمان : هو تصديق القلب بما جاء به الرسول ﷺ ، والإقرار باللسان والعمل به. والإيمان درجات بحسب قوة التصديق لوضوح الأدلة وجودة الفهم ، ويزيد الإيمان بالطاعات وينقص بالمعاصى ويتفاضل الناس فيه . قال تعالى ﴿**فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا**﴾ . وإذا اقترن الإيمان بالإسلام ، فإن معناها يقتصر على تصديق القلب ، كما فى حديث جبريل لسؤال النبى ﷺ . وإذا انفرد الإيمان يكون حينئذ بمعنى الاعتقاد بالقلب ، والتصديق بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره مع الانقياد .[الموسوعة الفقهية ٣١٥/٤ ، فتح البارى ٤٧/٤٦/١ جامع العلوم والحكم ص٢٢] .

(٢٦) الإحسان : الإحسان أخص من الإيمان فكل محسن مؤمن وكل مؤمن مسلم ولا عكس . والإحسان هو التحقيق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة، أى يراه يقيناً ولا يراه حقيقة وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : ((تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) . [فتح البارى ٤٨/١ ، التعريفات ص٢٧] .

obeikandl.com

وهذا كله لا يصح إلا بالعلم ومعرفة المعلوم ؛ لأن من جهل شيئاً أنكره، فلا تصح العبادة إلا بمعرفة المعبود . فإذاً لابد من العلم ؛ حينئذ ضرورة ، وهو ما قدمنا أصله فى الماهية وننبه عليه فيما بعد .

وأما الكيفية(٢٧) : فاعلم أن العلم فى نفسه ؛ هو مسموع ومنظور ومعقول.

فأما العلم المسموع : فهو ما سمع من الكتب وجاءت به الرسل ؛ من جمال أسماء الله وكمال صفاته ، وجلال عظمة ذاته ، وأمره ونهيه ، ونحو ذلك كقوله تعالى ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ معناه : استفتح الله العظيم الأعظم باسمه الذى إذا دُعى به أجاب وإذا سُئل به أعطى ، رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، لا رحمن فيهما ولا رحيم إلا هو(٢٨) .

وقوله تعالى ﴿**الم اللهُ لاَ إِلـهَ إِلاَ هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ**﴾[آل عمران:١] . فمعنى ﴿**الم**﴾ أنا الله أعلم . ومعنى ﴿**الله**﴾ إله الآلهة ، فهو إله كل شىء وخالقه ، ورب كل شىء ومالكه . ومعنى ﴿**لا إله إلا هو**﴾ أى : إله واحد لا شريك له فى إلهيته وتدبير ملكه ، فهو منفرد بالوحدانية فى ذاته وصفاته وأفعاله . ومعنى ﴿**الحى**﴾ المنزه بدوام الحياة عن الفناء ومعنى ﴿**القيوم**﴾ أى القائم بتدبير خلقه الموجود أبداً المتفرد فى ملكه وعظمته وقدرته بدوام البقاء(٢٩) .

---

(٢٧) الكيفية ؛ من الكيف وهى : هيئة قارة فى الشىء لا يقتضى قسمة ولا نسبة لذلك فقوله هيئة : أى تشتمل الأغراض كلها ، وهى أربعة أنواع : كيفية محسوسة ؛ كحلاوة العسل وملوحة ماء البحر ، ويسمى انفعاليات راسخة وأمّا الإنفعالات الغير راسخة كحمرة الخجل لكونها أسباباً لانفعالات النفس . الثانية : الكيفيات النفسانية كصناعة الكتابة للمتدرب فيها وتسمى ملكات راسخة ، والغير راسخة تسمى حالات كالكتابة لغير المتدرب – الثالثة: الكيفيات المختصة بالكميات – الرابعة : الكيفيات الاستعدادية .[التعريفات للجرجانى ص٢٤٢] .

(٢٨) راجع تفسير البيضاوى ، روح المعانى للألوسى [٤٣/١] .

(٢٩) قال الطبرى فى تفسيره : فإنه خبر من الله عز وجل أخبر عباده أن الألوهية خاصة به دون ما سواه من الآلهة والأنداد . تفسير الطبرى [١٦١/٣ ، روح المعانى للألوسى ٧٥/٣] .

obeikandl.com

ومثل قوله تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] . فمعنى ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ : التنزيه لذاته عن الإدراك، فهو المنفرد بعلم ذاته عن المخلوقات ، ومعنى ﴿**وهو يدرك الأبصار**﴾ ؛ أى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ومعنى ﴿**اللطيف**﴾ الملاطف بالرحمة كرماً منه وتفضلاً على كافة خلقه ومعنى ﴿**الخبير**﴾ هو الخبير بكل شيء فيما يصنع ، فلا شريك له فى ملكه[٣٠] .

ومثل قوله تعالى﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. فمعنى ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ التنزيه ؛ أى لا يشبهه شيء فى ذاته ، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله ؛ فهو منزه بالكلية عن جميع خلقه فى ذلك . ومعنى ﴿**وهو السميع البصير**﴾ أى : لا يفوته شيء ولا يخفى عليه شيء ولا يعزب عنه شيء ولا يشغله شيء عن شيء .

ومثل قوله تعالى ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ والبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد :٣] .[أى] هو ﴿**الأول**﴾ بلا بداية ﴿**والآخر**﴾ بلا نهاية ، ومعنى ﴿**الظاهر**﴾ أى: الموجود فى كل شيء بايجاده إياه ؛ لأنه صانعه والصنعة[٣١] دليل على الصانع . ومعنى ﴿**الباطن**﴾ : المستولى بالعلم والقدرة والحول والقوة . ومعنى ﴿**وهو بكل شيء عليم**﴾ أى : أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عدداً .

---

(٣٠) انظر : تفسير الطبرى [٢٩٩/٧] .

(٣١) أى خلقه وهيئه على مثال مستقيم . ذهب الموحدون إلى أن الصانع خلق الأجسام والأعراض ابتداءاً من لا شيء وقالوا : لم تكن الحوادث قبل حدوثها أشياء ولا أعيان ولا جواهر ولا عوارض ، وبعد أن أحدثها صانعها – يصح منه نقلها من صورة إلى صورة ، وإخراج جنس مخصوص من بين جنسين مختلفين فى الصورة كإخراج البغل من الفرس والحمار . [أصول الدين لابن طاهر ص٧٠] .

obeikandl.com

ومثل قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك :١] . أى : تبارك وتنزه وتملك كل شىء بقدرته ، ولا يخرج شىء عن قبضته ، ولا حول عن معصيته ، ولا قوة على طاعته إلا بمشيئته . ﴿وهو على كل شىء قدير﴾ .

ومثل قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] . فمعنى ﴿الأحد﴾ أى : هو واحد من جهة العدد لا ينقسم إلى أشياء كثيرة ، وبسيط فى أوليته لا يتركب ، ولا يختلط بالمركبات ، ولا يتنوع ، ولا يختلط بالأنواع ، ولا يتغير ، ولا تدركه التغيرات كالأشياء المحدثات ؛ بل هو قديم منفرد بالوحدانية ، فهو واحد فى ذاته وصفاته وافعاله . ومعنى ﴿الصمد﴾ أى : ليس بطاعم ولا شارب ، ولا تلحقه الزيادة والنقصان كغيره أيضاً . ومعنى ﴿لم يلد﴾ أى ليس بوالد كما زعم أهل الشرك الملحدون به ﴿ولم يولد﴾ أى : ليس بمولود كما زعموا أيضاً . ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ أى: لا يضاده ، ولا يماثله ، ولا يقوم مقامه شىء البتة . فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وكفى به ربًا ووليا ، وهو العلى العظيم(٣٢) .

ومثل قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاًوَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١] . أمرهم بعبادته وحده لا شريك له ، ثم نزه نفسه عن الشرك .

ومثل قوله تعالى ﴿واعْبُدُوا اللهَ ولاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء : ٣٦]. أمر بطاعته ولزوم عبادته ، ونهى عن معصيته وعن الإشراك به ، ونحو ذلك من صفات الله تعالى ، وما أحكمه فى كتابه من الدلالة على وحدانيته

---

(٣٢) راجع تفسير الطبرى فى الكبير والفخر الرازى والقاسمى . تفسير سورة الإخلاص.

وعظمته وقدرته ونهيه وتنزيهه عما سواه ، ونحو ذلك مما أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، فهذا كاف فى كيفية المسموع شرعا .

وأما العلم المنظور : فهو ما كتبته يد القدرة الإلهية بغير آلات وسطرته إرادة الله عز وجل من جميع مخلوقاته ليقرءه أولوا البصائر والألباب من جميع الموجودات المخلوقات الكائنات فى جميع الوجود ، مما شاهدته العيون وخفى عنها من الانفعالات الطبيعيات الجاريات بالانتقالات والتغيرات فى العوالم العلويات والسفليات فى جميع أماكنها وأزمنتها ،وما أودع الله فيها من خير أو شر أو نفع أو ضر أو سعد أو نحس أو حياة أو موت أو صحة أو سقم ، وأجراها فى ذلك على مشيئته وإرادته وقوته فدلَّ بها على معرفته وحكمته ونبَّه عليها بقوله تعالى ﴿**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ والأَرضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىءٍ**﴾ [الأعراف :١٨٥] .

وقوله تعالى ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنْفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الروم :٨].

وقوله تعالى ﴿**سَنُرِيهِمْ أَيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ**﴾ [فصلت : ٥٣] .

ومثل قوله تعالى ﴿**وَفِى الأَرْضِ أَيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات : ٢٠-٢١] ونحو ذلك من الآيات الدالة على بديع صنعته وتدبير ملكه وحكمته فهذان العلمان -أعنى : المسموع ، والمنظور- هما علم الشريعة الظاهرة بعلم اليقين ، كما قدمناه والله سبحانه عز وجل أعلم.

وأما العلم المعقول : فهو شريعة باطنة مؤيدة للشريعة الظاهرة حتى يفضى إلى حق اليقين ، وذلك ما حكم به العقل النورانى فى القلب الإنسانى

الذى جعله مرآة للعارف يميز به الحق من الباطل بالنظر الحقيقى ؛ لأن الله تعالى لما أرسل رسلا ظاهرة بما تجهله النفس الأمارة بالسوء من العلم الظاهر ، وقاسته بقياسها الفاسد على طبعها الكثيف الذى أودعه الله تعالى فيها لما شاء من علمه لم يكن ذلك كافياً فى حق الجاهل الكثيف الطبع ؛ لأن من جهل شيئا أنكره . ولذلك كان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: ((اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون))(٣٣) . أى ألهمهم الصواب بنظر العقل الحقيقى ؛ لأن العقل : نور إلهامى عاقل لجميع الأشياء أى جامع لها – كما سنذكر إن شاء الله تعالى – فالعقل حينئذ جعله الله تعالى رسولا باطنا مؤيِّدا بالنظر الحقيقى لما جاء به النبى صلى عليه وآله وسلم مبلغاً عن الله تعالى بغير واسطة نبيٍ مرسلٌ ولا ملكٍ مقربٌ إلا روح الله الذى يلهم العقل –كما سنذكر إن شاء الله تعالى فى موضعه– قال الله تعالى ﴿**رُّسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء :١٦٥] . أى: الظاهرة والباطنة كجبريل عليه السلام والأنبياء المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، والعقل الراجح بالنظر الحقيقى ؛ لأن العقل قد صار أيضاً من جملة الرسل ؛ لتمييزه الحق من الباطل ، وتأييده للنبى صلى الله عليه وآله وسلم .

والعاقل : هو الذى إذا سمع شيئاً ، أو رآه ، أو دعى إليه ، أو أمر به ، أو نهى عنه ، وكان ذلك الشىء مخالفا لطبع نفسه ، أو موافقاً لها ولم يدر أن الصواب المجىء إليه أو النفور عنه دَبَّرَهُ أولاً بنظر العقل الذى أودعه الله تعالى فيه لذلك ، وتفكر فى عاقبته وحقيقة معرفته ، وما يؤول إليه من الصواب والخطأ ، والضلال والهدى . فيميزه بعقله العاقل لجميع الأشياء ،

---

(٣٣) ذكره الزبيدى : [إتحاف السادة المتقين ٣٥٨/٨] ، وأورده السيوطى ، وهو جزء من حديث طويل فى الدر المنثور [٢٩٨/٢] وعزاه لابن مردويه والضياء فى المختار عن ابن عباس .

ففاز حينئذ بمعرفة ذلك الشيء وعلم حقيقته وظفر بسلامة عاقبته ، فما حكم به العقل النوراني في القلب الإنساني ، فهو علم الحقيقة الباطن شرعاً ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وطريق السالك في ذلك : أنه إذا دعاه الله تعالى إلى طاعته بالعِلْمَيْن المتقدِّمَيْن اللذين هما : المسموع والمنظور ، ثم أحتجبت النفس عن ذلك وأنكرته؛ لعظمها وكثافة طبعها المجبول على الجهل والهوى ، فهي على الحقيقة : النفس الأمارة بالسوء - كما ذكر الله تعالى - والقدوَّة الشديدة العداوة كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ((أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك))(٣٤) . فتستحق المجاهدة حينئذ ؛ لقوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَمَنُواْ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الكُفَّارِ**﴾ [التوبة :١٢٣] . وهي أقرب مَنْ يلي الإنسان من الأعداء على الحقيقة ؛ لأنها داخلة في باطنه تدعوه إلى الكفر والضلالة والمعصية ؛ لتورده إلى المهالك فهي أعدى الأعداء . وأقربهم منه ؛ لكونها باطنة في داخله والعدو الباطن أضر من العدو الظاهر ؛ ولهذا هي أضر من الشيطان الذي هو أعدى الأعداء الظاهرين ، لأنه أيضاً أقربهم ؛ لكونه جاثما على القلب من خارج يوسوس للنفس بالسوء وفعل المعاصي ، وقد حرَّض الله تعالى على عداوته ونص عليها في محكم كتابه بقوله تعالى ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر :٦] .

---

(٣٤) انظر : إتحاف السادة المتقين للزبيدي [٣٣/٩ ، ٧ / ٢٠٦] ، المغني عن حمل السفار للعراقي [٤/٣] ، قال : في كشف الخفا : رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف . وما أحسن ما قيل :

إنِّي بُلِيتُ بأربَعٍ مَا سُلِطوا   إلاّ لأجْلِ شَقَاوَتِي وَعَنَائي
إبْليسُ والدّنيا وَنفسِي والهوى   كَيْفَ الخَلاَصُ وكُلِهمُ أعْدَائِي

والأصل فى ذلك : أن العقل والإيمان فى داخل القلب . والنفس : ساكنة فى الدماغ محتوية على جميع الحس والحركة فى البدن ، وطرفها اللطيف من حيز العقل متصل بالروح والإيمان اللذين فى القلب ، وطرفها الكثيف من حيز الجسد مما يلى الشيطان فهى تارة تنجذب إلى العقل والإيمان وتارة تنجذب إلى المعاصى وفعل الشيطان .

ومثل الجميع : كقوم أعداء فى قصر ؛ وهو القلب ، والقصر فى مدينة؛ وهى الجسد ، فإن غلب العقل والإيمان على النفس حتى استأسراها وجذباها[٣٥] إلى طبعهما الصالح هرب الشيطان وصلح ذلك الجسد ، وإن مالت النفس الشهوانية الآمرة بالسوء إلى المعصية وفعل الشيطان ضعف العقل والإيمان .وفسد ذلك الجسد وكانت سبباً لهلاكه .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم :((إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب))[٣٦] . وإن وقعت الموازنة والمغالبة فالمحاربة باقية ، وإلى ذلك أشار النبى صلى الله عليه وآله وسلم بقوله حين رجع من غزاة الكفار :((رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر))[٣٧] . يعنى : جهاد النفس ، فحينئذ ينبغى أن ينزل إليها ضرغام العقل على جواد قوله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت : ٦٩] . فيضربها بسيف الحقيقة القاطع لدروع الجهل ، فيقول لها : لِمَ لا تطيعى من خلقك وخلق كل شىء ، وهو على كل شىء قدير ، وهو الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له . فإن قالت : ما الدليل على ذلك ؟ .

---

(٣٥) فى النسخة (ع) : وجدا .

(٣٦) أخرجه البخارى ، كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه [٥٢] .

(٣٧) ذكره العراقى فى المغنى عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٧/٣] ، والزبيدى فى الإتحاف [٣٧٩/٦] ،وكشف الخفا [٥١١/١] ، وقال نقلاً عن ابن حجر: **هو مشهور** على الألسنة ، وهو كلام إبراهيم بن علية ،ورواه البيهقى بسند ضعيف عن جابر.

oberkandl.com

قيل لها : إنه لابد لكل مخلوق من خالق خلقه ، ومصوِّر صوَّره ؛ لأنه لا يخلق شيءٌ نَفْسَه البتة . فإن سلمت هذا وأقرت به . قيل لها : أفأنت خالقه أم مخلوقه ؟ فإن قالت : خالقه عرضت عليها ذرة من خلق الله عز وجل ، وقيل لها : اخلقى مثل هذه الذرة ؛ فضلا عن أن تخلقين فيلا أو تخلقين جملا، أو جبلا ، أو السماوات أو الأرض وما بينهن وما فوقهن وما تحتهن من المخلوقات معاً ، فإن عجزت عن خلق ذرة ثبت أنها مخلوقة ضعيفة عاجزة ، مثل تلك الذرة فى الضعف والعجز ، وقامت الحجة عليها وعلى جميع المخلوقات لضعفهم وعجزهم ، وثبت وصح أن الله تعالى هو خالقهم ومصورهم ومالكهم ومدبرهم وهو على كل شيء قدير .

وتميز[٣٨] هو عنها وعن جميع المخلوقات بالإلهية والوحدانية والعلم والقدرة والقهر ، وتنزه عنهم بالكلية فى ذاته وصفاته وأفعاله . فإن قالت بجهلها : هل هو واحد أو اثنان أو أكثر ؟ قيل لها : هو واحد لا شريك له فى ملكه ، فإن قالت : ما الدليل على ذلك ؟ .

قيل لها : لو كان اثنين ؛ لكان أحدهما مفتقراً إلى الآخر للمشاركة فى تدبيره الملك ، فهو أيضا ضعيف عاجز ، والضعيف العاجز المفتقر إلى غيره ليس بإله البتة ، وكذلك لو كان ثلاثة أو أكثر لكانوا أضعف كلما كثروا فقد صحت الوحدانية لله عز وجل ، وثبت أنه إله واحد لا شريك له فى ملكه ولا يخرج شيء عن قبضته ، ولا يتحرك متحرك بخير أو شر ، ولا يسكن ساكن إلا بحوله وقوته وقدرته ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا فى وحدانيته ﴿**مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [المؤمنون :٩١-٩٢].

---

(٣٨) فى النسخة (غ) : يميز .

فإن قالت أيضاً بجهلها : هل له بداية أو نهاية ؟ وهل هو شيء كالأشياء ؟ وهل له مكان يحده ؟ وهل يُدْرك بحسٍّ أو يقاس بقياس حسى ؟

قيل لها : إن الخالق منزه عن المخلوق البتة فى ذاته وصفاته وأفعاله لا يشبهه شيء البتة ، فهو أول بلا بداية وآخر بلا نهاية ، وهو شيء معلوم الوجود بالذات من حيث هو ، وبالصفات والأفعال من حيث المخلوقين ، ولكن ليس كالأشياء المحسوسات بجوهر ظاهر أو باطن ، ولا يقاس بشيء من ذلك العلم ؛ بل هو موجود بالعلم والقدرة فى جميع الأشياء ؛ لأنه صانعها والمصنوع دليل على الصانع، وخالقها على الحقيقة ؛ إذ لابد لكل مخلوق من خالق ، والخالق ليس كالمخلوق البتة . فهو متنزه بذاته عن الحس وبصفاته عن الجنس ، وبأفعاله على العكس قريب من الأشياء لا يدرك فى قربه بقرب المسافة ، ولا فى إيصاله بالحلول واللمس وبعيد من الأشياء ولكن ليس كبعد المسافة فلا يدرك فى بعده بالانفصال والانتقال والعدم ، وكما تنزه عن كل شيء بكمال صفاته ، كذلك تفرد عن كل شيء يعلم ذاته ، فلا يُعلم أين هو ، ولا ماهو ، ولا كيف هو إلا هو .

فإنه لم يبق له حجة إلا مسألة الشيطان الكفرية ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : ((لا يزال الشيطان بأحدكم يقول : من خلق كذا من خلق كذا، وهو يقول : ربك ربك حتى يقول : من خلق ربك ، فإذا قال ذلك فإنما هو الشيطان . فليقل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له))[٣٩] .

وذلك أن الله عز وجل قد ثبت بالحجة الواضحة : أنه إله كل شيء

---

(٣٩) أخرجه أحمد فى مسنده [٢/٣٧٩] من حديث أبى هريرة ، وأخرج البخارى فى صحيحه [٧٢٩٦] حديثاً بمعناه ، قال أنس : قال رسول ﷺ ((لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا : هذا الله خالق كل شيء . فمن خلق الله)) .

البتة ، ومنزه عن كل شيء البتة، فليس بمخلوق البتة ؛ لأن كل مخلوق يعتريه ويلحقه النقصان والزيادة والبداية والنهاية بحدوثه من خالقه ، فلا يشاكله شيء البتة .

والله تعالى هو خالق المخلوقات المحدثات ، وخالق النقصان والزيادات، وخالق البدايات والنهايات . فهو متنزه عن جميع ذلك بالكلية فلا بداية ولا نهاية فله القدم الكلى ودوام الوجود الكلى ولابد من هذا ضرورة ؛ لأنه لو كان مخلوقا لدخل فى حكم المخلوقات من جميع الجهات ، واحتمل البدايات والنهايات ، وانعدمت عنه صفات الخالق البتة وإذا انعدمت صفات الخالق لم يكن فى الوجود خالقا البتة ، وإذا لم يكن فى الوجود خالقا لم يكن مخلوقا البتة ، ووقع العدم الكلى وهذا باطل بوجود الله الكلى .

قد ثبت وصح بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة أن الله عز وجل ليس بمخلوق البتة ، بل هو خالق كل شيء البتة ومُوجِد كل موجود البتة ، فهو علة العلل البتة .

تنزه عن إدراك ذاته : فقال تعالى ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾ [الأنعام :١٠٣] . وتنزه عن إدراك صفاته : فقال تعالى ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾ [الشورى :١١] .

وتنزه عن إدراك فعله : فقال تعالى ﴿**لا يُسْئَلُ عَمَا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون**﴾ [الأنبياء :٢٣] .

وتنزه عن المشاركة والعجز : فقال تعالى ﴿**تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الملك:١] .

فإذا استقر هذا العلم عرف العارف به : أن الله تعالى أقام إرادته مقام ذاته فتجلى بماحسن صفاته فى جميع موجوداته ، فهو معلوم الوجود ، خفى الذات ظاهر الفعل ، كامل الصفات ، لا تدركه الحواس ، ولا يشتمل عليه القياس ، أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، وهو على كل شيء قدير .

فهذه حقيقة الشريعة وأصول علوم الدين البديعة ونهاية العلم المعقول الذى قَرَنَ العلم والمعرفة بإشارة الكيفية العقلية .

وأما الكمية[٤٠] : فقد ثبت أن درجات العلم ثلاث :

علم الشريعة : الذى هو بداية العلم .

وعلم الحقيقة : الذى هو المعرفة والنهاية .

وعلم المشاهدة : الذى هو حقيقة الحقيقة ونهاية النهاية .

والأصل فيه : أن العبد السالك لما لم تصح عبادته إلا بمعرفة المعبود وترقّى من العلم إلى المعرفة بطريق التمييز بين الخالق والمخلوق ، عرف نفسه بالعبودية والعجز والفناء ، وعرف ربه بالربوبية والقدرة والبقاء ، فصار هو العارف حقا ، كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ((من عرف نفسه فقد عرف ربه))[٤١] .

وفى حديث آخر : ((أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه))[٤٢] .

---

(٤٠) من الكم : وهو العرض الذى يقتضى الإنقسام لذاته ، وهو إمّا متصل أو منفصل لأن أجزاءه إمّا أن تشترك فى حدود ؛ يكون كل منها نهاية جزء ، وبداية آخر ، وهو المتصل، أولا ، وهو المنفصل ، كما أن الكمية : ما به ، يجاب عن السؤال بكم. [التعريفات للجرجانى ص٢٣٩] .

(٤١) ذكره صاحب كشف الخفا [٢٦٢/٢] وقال : قال النووى : ليس بثابت ، قال ابن تيمية موضوع . وقال أبو المظفر بن السمعانى فى القواطع إنه لا يعرف مرفوعاً . وإنما يحكى عن يحى بن معاذ الرازى . وللحافظ السيوطى فيه تأليف لطيف سماه القول الأشبه فى حديث (من عرف نفسه فقد عرف ربه) وهو ضمن كتاب الحاوى فى الفتاوى .

(٤٢) ذكره العجلونى فى كشف الخفا [٢٦٢/٢] فى باب أدب الدُنيا والدّين من رواية عائشة.

فلما عرف ذلك أقام نفسه مقام ذل العبودية بحق عظمةِ الربوبيةِ فقط. مفتقرا إلى الله تعالى بالكلية ، واقفا بين يدى رحمته وخوف هيبته منزها لله عما سواه ، لا يَفْقِدُهُ حيث أمره ولا يجده حيث نهاه ؛ فانيا عن دعوى نفسه بحقيقة معرفته بربه فى فج التنزيه بعد التمييز ؛ لعجزه وافتقاره وذل عبوديته، فلا سبيل له إلى إدراك حقيقته بعد هذا ؛ لأنه كلما حقق عجز نفسه كان أعجز؛ وكلما قدر لكمال صفات الله تعالى حقيقة ؛ كان الله تعالى أعظم وأقدر وأجلّ وأكبر مما قدر.

وكذلك أيضاً كلما قدر لذات الله تعالى صورة فى نفسه ؛ رجعت تلك النسبة –المصورة– إلى نسبة المخلوقين وصفاتهم ، فهى مخلوقة على الحقيقة، وعابدها عابد صنم ؛ لأن الله تعالى بخلاف ذلك ؛ إذ لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام والأفكار(٤٣) .

وكما ليس كمثله شىء ، ولا يشبهه شىء فكذلك لا يسعه شىء ولا يحيط به شىء ؛ لأنه بخلاف كل شىء ، واسع لكل شىء ، ومحيط بكل شىء، وهو على كل شىء قدير .

فالنفس هاهنا فانية عن الإدراك لا حركة لها إلى دعوى فى معرفة

---

(٤٣) والدليل على أن الله واحد فى ذاته ليس بذى أجزاء ولا أبعاض أنه قد صح أنه حى قادر عالم مريد ، فلو كان ذا أجزاء وأبعاض لم يخلو من أن يكون فى كل جزء منه حياة ، وقدرة ، وعلم ، وإرادة ، أو تكون هذه الصفات فى بعض أجزاءه ، فإن كان فى كل جزء منه بعض هذه الصفات كان كل جزء منه حياً قادراً عالماً مريداً بإنفراده؛ ولو كان كذلك لصح وقوع الخلاف بين أعضائه حتى يريد بعضه شيئاً ، وبعضه يريد ضد ذلك المراد وخلافه ، فتتمانع أعضائه . وإن كان تلك الصفات لبعض أعضائه وجب قيام أضداد تلك الصفات بالباقية من أعضائه ، فكان يكون بعضه حياً عالما مريداً وبعضه ميتاً وعاجزاً وجاهلاً ساهياً ؛ وهذا محال . [أصول الدين لابن طاهر ص٥٧] .

حقيقته البتة ، فهى محجوبة بحجاب العظمة مقهورة بيد القدرة راجعة إلى القهقرى بالعجز عن الإدراك ، فمن جاوز ذلك حُرِق . ومن غاص فى بحره غرق . فما يُدْرَكُ علم ذاته ولاكُنْهَ صفاته ، ولا الثناء عليه إلا هو .

قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ((لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك))[٤٤] .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : العجز عن إدراك الإدراك إدراك .

فالواصلون قاصرون عن إدراك حقيقته ، تائهون فى بحار معرفته ، مزمومون بزمام توفيقه وإرادته ، مقهورون بحجاب عظمته وقدرته ، ألهمهم السلوك إلى تحقيق معرفته فسلكوا .

فلما حققوا فناء أنفسهم فى بقاء وجوده هلكوا .

فحين تحيروا وانقصروا[٤٥] خروا له سجدا فى المعرفة بعد أن تطهروا من دنس الشك ، وألزموا أنفسهم عبادته الخالصة ، فصلوا إلى قبلة وجهه ، وصاموا عما سواه ؛ فهم الأحرار الأبرار الذين صحت عبادتهم بعد معرفة المعبود ، فنالوا كل المنى والمقصود .

ومنهم أولياء الله المقربون المجذبون بعِنان التوفيق ؛ فهم أهل المشاهدة والتوفيق والتحقيق . لما وصلوا إلى درجة المعرفة بالله عز وجل قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] . وتحيروا فهاموا فأدار عليهم كؤوس فضله[٤٦] ، وأفناهم عنهم به ، واختصهم لقربه وجعلهم من حزبه ، فأقعدهم على بساط أنسه، وأشهدهم حضرة قدسه فصحت مشاهدتهم بعد فناء أنفسهم .

---

(٤٤) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٢٢) وأبو داود فى الصلاة (١٤٨) ، والترمذى الدعوات (٣٤٩٣) عن عائشة رضى الله عنها .

(٤٥) انقصروا عن الشىء : أى تركوه وهم لا يقدرون عليه .

(٤٦) فى النسخة (ك) : حبه .

فلسان ترجمان صفة الرحمن ، يثنى على نفسه بلسان أحدهم حين استيلائه عليه وإفنائه إياه يقول : أنا الله سبحانى ما أعظم شأنى . وذلك بعد ترقى أحدهم فى درجات العبادة الخالصة بنوافل فناء النفس التى هى أفضل القربة إلى الله عز وجل .

فلما فنيت فى وجوده اتصف هو بها ، فقال تعالى : ((**لا يزال العبد يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به**))[٤٧] . فحينئذٍ صحت مشاهدته التى هى حقيقة الحقيقة والله أعلم شعر :

يا من تعرَّف لى به فَعَرفتُهُ ... وبه المحبةُ حين أنْ أحببتُه
أنت الذى فى كلِّ كلِّى حاضرُه ... أشهدتنى وجْدِى فمنك شهدتُه
فالوجْدُ منِّى والوجودُ جميعُهُ ... أفنيته فعلى الحقيقة أنتَ هو

فهذه طريقة العبد السالك ووظائفه فى درجات العلم الثلاث -كما وصفنا- وهذا هو الكبريت الأحمر[٤٨] ، والترياق[٤٩] الأكبر المركب من معجون؛ العلم والمعرفة والمشاهدة[٥٠] النافع لأدواء[٥١] القلوب من معصية علام الغيوب فى علم الشريعة والحقيقة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(٤٧) جزء من حديث قدسى أخرجه البخارى بنحوه كتاب الرقاق ، باب التواضع (٦٥٠٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه ، وأحمد فى المسند (٢٥٦/٦) .

(٤٨) وردت عبارة (الكبريت الأحمر) فى حديث عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ قال : ((ما خلق الله فى الأرض شيئاً أقل من العقل، وإن العقل فى الأرض أقلُ من الكبريت الأحمر)) .ذكره صاحب كنز العمال (٧٠٣٩) وعزاه للروياني وابن عساكر، وهو ضعيف حيث إنه لا يصح حديث فى العقل كما سيأتى .

(٤٩) أى الدواء الأعظم لدرن الشرك ، وما خفى منه .

(٥٠) انظر الهامش رقم ١٩ من هذا الكتاب .

(٥١) إدواء : مفردها داء : مرض .

obeikandi.com